« نعم » أومن بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

هل يستطيع صديقي الأستاذ الطنطاوي أن يحصر الجدل في هذه الصخرة الراكزة التي يخيل إليّ أني وضعت عليها الفلسفة الإثباتية واليقين الديني ، وقيمة العلم والحضارة حين اهتديت إلى ما زعمته القضية الفكرية الأولى . وهي الملخصة في هذه الجملة :

« أومن بالإنسان لأومن بالكون ورب الكون ، فلن يؤمن الفرد الإنساني بهما إن لم يؤمن أولا بنوعه ، لأن عقل النوع هو المنظار الذي ندركهما به ، فإن أهدرنا قيمة الإنسان أهدرنا عقله وروحه ، فلا يبقى لنا ما ندرك به كوننا وربنا ! ! »

ولو وقف صديقي أمام هذه القضية التي هي كما قلت « أشبه ما تكون بمعادلة رياضية » لعرف أي نظرة جديدة إلى الكون تتراءى من خلال هذه الفكرة ، وأي أفق رحيب يتفتح للنفس البشرية من ورائها ، وأي توفيق لطريق حل مشكلات العيش والفكر يتراءى منها !

وقد زعمت أني اهتديت إلى القضية الفكرية والدينية الأولى حين أقرر هذه القضية ، فإن لم أكن سبقت إلى الاهتداء إليها ، فهذا الزعم صحيح ، ونعم هو من توفيق يحمد الله عليه أجل الحمد .

وقد قلت في مقدمة الكتاب : « وما كاد أرى أن الموقف الفكري في هذه القضية يسبق موقف (ديكارت) حين أثبت « وجود الذات المفكرة » ، واتخذه أساساً بنى عليه فلسفته الإثباتية ؛ إذ أنه من أين لديكارت أن يثبت أن لتلك الذات قيمة واعتباراً ، وأن لما ينتج منها من الفكر قيمة واعتباراً إن لم يثبتهما أولا للنوع الذي تنتسب إليه هذه الذات ، ليكون لما يصدر عن أفراد ذلك النوع تلك القيمة وذلك الاعتبار ؟

فالموقف الطبيعي الأول هو أن نرصد أولا هذا النوع الإنساني كله بعين غريبة عنه ، مفارقة وجوده ، لنثبت له مكانته الخاصة في الكون ، وخصوصاً بعد أن وصل فكره وجهده أخيراً إلى أن يكون عاملا عظيما من عوامل الحكم والتكوين والتخريب في الطبيعة ، ثم تأتي بعد ذلك جميع مواقف الإثبات واليقين » .

والطفل في نشأته الأولى يدرك الكون والناس إدراكا فكريا قبل إدراك نفسه وأعماقها ، فينبغي مسايرة للنشأة الطبيعية أن لا نحاول إثبات « الذات المفكرة » كما فعل ديكارت إلا بعد أن نثبت « النوع » الذي نراه وندركه قبل أن نراها ، بل نحن لا نستطيع أن ندركها إلا في مرآة النوع ومواريثه . والفرد من غير النوع لا يستطيع أن يدرك شيئاً من مواريث جنسه ؛ ويكون كذلك « الإنسان الغزال » ، أو « الإنسان القرد » ، أو « الإنسان الذئب » ، الذي يتحدث عنه الناس !

هذه هي القضية في سماتها العالية ، وهي تحتاج إلى جناح قوي للتحليق وراءها ، وتحتاج — كما قلت — إلى نظرة المفارق لنفسه ونوعه ، الخارج بالفكر والخيال عن حدود وجوده ، الراصد لنوعه رصد الملأ الأعلى ممن هم فوق الإنسان والملأ الأدنى مما هن دونه ! !

***

ولم يدر صديقي الطنطاوي أن أولى الناس بالفرح والتأييد لهذه القضية هم أمثاله من الدينيين الذين تهفو حياة قلوبهم إلى الإثبات واليقين ، ويرون الكون لا معنى له إن لم يكن قائماً على قيم ثابتة تعتمد على منطق الطبع ومنطق العقل ومنطق العمل .

والقضية مسوقة للرد أولا على الماديين الذين لا يعترفون بقيم ثابتة للوجود ، و (الدرونيين) الذين يقررون أن الإنسان ما هو إلا قرد نهض على قدميه وثرثر بلسانه وفرح بما ثرثر ، وخلق لنفسه آلهة ، ووضع مقاييس وموازين لخيره وشره ، وزعم أنها موضوعة من « عقل » الكون ، ويقررون أن عقل الإنسان ودينه وعلمه ، إنما هي كالإفرازات المادية للكبد والمدة وغدد السموم في العقارب والحيات ، وأن ما يزعمه من قيم للأمور ، إنما هي أعاليل يعلل بها نفسه ليخدعها ، وليس بينه وبين «عقل» الوجود — إن اعترفوا به — صلة ، وإنما بينهما هوة لا يستطاع عبورها ، وأن موازين « الخير » والشر عنده مسائل اعتبارية ، وليس هناك وحي ولا نبوة ، وأن ما بين الناس لا يزيد على ما بين النحل والنمل والبقر والبراغيث والبعوض — كما قال ذلك في الرد

على في هذه المجلة صديقي الأستاذ زكي نجيب محمود في سنة ١٩٤١ — وأن حياة أفراد الإنسانية إلى عدم لا رجعة بعده ، كحياة مليارات أوراق النبات وأهراء الحبوب ، وملايين الحشرات تأتي بها دورات وتذهب دورات أبدية من غير رجعة إلى مصير أ كل — كما قال ذلك كاتب متدين صوفي باحث كتب إلى من بيروت يطرح أمامي هموماً ذهنية وشكوكا لحقته —

أفتراني يا صديقي حينما أفتش في رحاب الكون والنفس عن فكرة جديدة أقذف بها على باطل القوم ، أنتزعها من قوى الإنسان الفكرية والابتداعية النامية النميّة التي جعلت الإنسان في مصاف آلهة القدماء في التكوين والتخريب والتسخير لقوى عظيمة جبارة هائلة كالكهرباء والقوى الذرية والمواد العمياء وتقريب الأبعاد وكشف المستورات في خبايا الكون والتغلب على كثير من الآفات ... أفتراني حينما أفعل ذلك أكون قد خالفت رأى القرآن في الإنسان ؟ !

إن الماديين يهدرون الإنسانية كلها وما أتى عن طريقها من دين وعلم ووحي أنزل على محمد وسابقيه من الرسل ، فليس القرآن بشيء في ميزانهم ، وليس محمد وجميع الرسل في رأيهم سوى أفراد من تلك الإنسانية الفردية التي تلغو وتزعم أن للغوها قيمة .

أفنساق الحجة لأمثال هؤلاء من القرآن أو التوراة أو الإنجيل وهم لا يعترفون بها ولا بمن نزلت عليهم ولا بالنوع الذي ينتسب إليه من نزلت عليهم ؟ أم الأولى أن تساق الحجة إلى هؤلاء من رحاب الفكر والكون الواسعة بمنطق هذا الزمان ما دامت آيات الله في الآفاق والأنفس دائماً تسعف الذين يخلصون لله ويخلصون الفكر في الكون ؟ !

إن الفكر الديني آفته أنه يخاف غالباً اجتياز الحدود الموروثة ولو أيقن أن وراءها مصلحة محققة ، لأنه فكر يغلب عليه الاتباع لا الابتداع ، وربما يكون ذلك مقبولا ما دامت طمأنينة النفس وسكينتها موفورة ، ولكن أعتقد أن واجبه أن يأخذ الحجة حيثما وجدت ما دامت تسعف في إقناع المعارض أو إلزامه .

***

ثم إني أسأل صديقي بدوري كما سألني : كلام مَن يا أخي الذي يقول : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » ، « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ؛ « قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » ؛ « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » ؛ « والعاقبة للمتقين » ؛ « ولا أقسم بالنفس اللوامة » أي « الضمير » ! ؟

أليس هذا كلام الله أيضاً ؟ وهل وراء سجود الملائكة لأبي هذا النوع تكريم ؟ وهل وراء اختصاصه بعلم ما لا يعلمه الملائكة من غيب السموات والأرض تفضيل ؟ وهل بعد صبر الله وحلمه على ما يبدو من ظواهر الإفساد وسفك الدماء الذي يفعله الإنسان حجة على أن الغاية من خلق هذا النوع ، إنما هي غاية تربو فوائدها وبركاتها على خسرها ولمماتها ؟

وهل بعد رد الله تعالى على الملائكة حينما قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » بقوله : « إني أعلم ما لا تعلمون » يصح أن نعترض كما اعترضوا ، ونجعل حجتنا في السخط ع هي ما نراه من ظواهر الفساد وسفك الدماء بعد أن نظر الله ته إليها في مجموعها نظرة اغتفار وسماح في سبيل تحقيق الغاية الكبر من حياة هذا النوع ؟

إن أسرار قصة آدم هذه كما أوردها القرآن في أوائل سورة البقرة ، أعظم مفتاح للغز الحياة ، وأعظم تاج على رأس البشرية ، وأعظم صوت يطرد اليأس من مستقبل الإنسان ، وأعظم تفسير لما يبدو من شروره ، وأعظم دافع إلى الكفاح لتحقيق كماله المرجو !

وإني دائماً أقول : إنه يجب على المفكرين ألا يسرعوا بحكمهم النهائي على الإنسانية ، مع أنهم لم يتبينوا خاتمة حياتها ، ولم يدركوا « القطفة » الأخيرة من ثمارها ... ولعلها لا تزال في دور الشباب الطائش ، ولعل وراء طيشها كهولة عاقلة . وما دام الله تعالى لم ييأس منها — ولن تفوت عليه تعالى غاية أرادها — فينبغي لنا ألا نيأس منها كذلك ، فما دام يسمح بخروج بذور إنسانية ، فلا تزال الغايات والنتائج الصالحة منها ، بعضها يتحقق وبعضها يُنتظر تحقيقه .

وما عهدنا نوعاً ما في الطبيعة سلك غير الطريق التي رسمها له الله « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، فلما ذا يستثنى الإنسان

ويجعله يسير في غير طريقه التي رسمها له ؟ وفيما ذا يكون الاستثناء في الإنسان أثمن شيء في الأرض ؟ !

* * *

ولم يدر صديقي — وهو الباحث الديني — أن الله تعالى لا يجوز عليه عقلا أن ينعى على الإنسان صفات وطبائع هو الذي فطره عليها وحدها وأخرجه في قوالبها ، وصوره من نطفة أمشاج وأخلاط من قوى ومواد عمياء جامدة ليبتليه ، فليس الإنسان إذاً ملوماً ما دام قد طبع على أن يكون فقط كفوراً وهلوعاً وجزوعاً وكنوداً وعجولا وفتوراً وضعيفاً وجدلا ... الخ

وما كان القرآن — وهو كلام الله الذي كرم الإنسان الأول ودافع عنه أمام الملائكة وأمرهم بالسجود له وخصه بعلم غيب السموات والأرض وطرد إبليس من الجنة حينما استكبر عليه — ليناقض نفسه في قضية الإنسان ، ويقصد إلى ما فهمه الأستاذ وأمثاله ممن يسوقون دائماً هذه الآيات التي ذكرها هو في مقام الاعتراض علي .

إنما القرآن في هذه الآيات يصف طبائع الشر التي في الإنسان كما يصف طبائع الخير فيه ، ولم تفد هذه الآيات أن طبيعته مقصورة على الشر وحده ، فإذا وقع منه الشر ، فهو جدير به لأن في طبيعته جانباً للشر ، وإذا وقع منه الخير ، فهو جدير به أيضاً ، لأن في طبيعته جانباً للخير أيضاً : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » ، « وهديناه النجدين » ، « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » ، « إن ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

فإذا قال القرآن : « إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين » ، فهو يقرر أن من طبع الإنسان هذه الصفات ، لأنه « خلق » عليها ، فليقاومها بما يمحوها أو يعدلها كالمداومة على الصلوات والزكاة وأمانة العهد ، وغير هذه من صفات الخير التي ذكرت وراء الآيات السابقة .

وإذا قال : « ويدعُ الإنسان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الإنسان عجولا » . فهو يقرر كذلك أن من طبيعة الإنسان التي خلقه الله عليها العجلة : « خلق الإنسان من عجل ، سأريكم آياتي فلا تستعجلون » . ولذلك يجب التريث والصبر والسكينة وعدم اختلاس حق الأيام في إنضاج الثمار حسب قوانين الله التي وضعها

وإذا قال القرآن : « وخلق الإنسان ضعيفاً » . فهو فعلا قد خلق من شيء تافه ضعيف : « الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة » ، « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين » .

وهكذا سائر الآيات التي ذكرها الأستاذ تنبه إلى ما طبع عليه الإنسان من صفات الشر ليحذرها ولا يستسلم لها ، وليقاومها بطباع الخير التي طبع عليها أيضاً . ولو لم يورد القرآن تلك الطباع في معرض الذم حينما يستعرض أفعال الأشرار ، ما تنبه أكثر الناس إلى أنها طباع شر يجب الحذر من نتائج الاستسلام لها ، وكيف يتنبهون إلى أنها شر ما داموا يجدونها في طبيعتهم

والقرآن وهو كتاب تربية ، ما كان له أن يغفل الحملة العنيفة على طباع الشر في الإنسان والإيحاء عليها باللوم والإزراء ، حتى ينبه الإنسان إلى خطرها في قذفه إلى أسفل سافلين ما لم يعتصم بما في طبعه من طباع الخير ، وبما يأتيه من هدى الله .

ولو ربى الأطفال جميعاً حق التربية ، ولم يهملوا هذا الإهمال الشنيع الغالب الذي نراه في الأمم المتأخرة ، لرأينا أن نسبة الخير ترتفع في حياة الناس ونسبة الشر تنخفض ، كما وقع ذلك في عهد الدولة الإسلامية الأولى ، وكما يقع الآن في دول شمال أوربا كفنلندا والسويد والنرويج والدانمرك .

وهذا يدل على أن الإنسان يتغلب على ما في طبعه من الشر بالتربية وطباع الخير ، فليس الشر غالباً إلا بما يظاهره من فساد النظم الاقتصادية وإهمال التربية والتهذيب والتعليم

* * *

وبعد ، فهذا الفهم الذي فهمه الصديق الطنطاوي ، إنما هو من آثار السير في الحدود الموروثة وعدم تغيير طرق النظر بتغير العصور ، وأرجو أن يتحرر صديقي في فهم القرآن من جميع الموروثات حتى تنكشف له أعاجيب ووجوه جديدة من الرأي الذي يشهد للقرآن بأنه كتاب البشرية في جميع عصورها وأحوالها